تأملي الاعراف

كيف خلقت فكرتها ؟

هي ذكريات حزينة تحاول أن تحجبها أكفان سنوات أربع فتهتكها أشباح سوداء ما تزال تتراءى أمام عينيّ .

كنت آنئذ في المنصورة وقد مرت عليّ فيها سنوات ثلاث تغيرت في أثنائها نفسي وحالت إلى صورة باهتة من الأمل المكتئب اليائس .

ولست أدري أكان جوّ المنصورة هو الباعث على ذلك ؟ وهل كان في أمسيات شتائها الحزين المنقبض ما بعث في نفسي هذا الشعور المتشائم نحو الحياة ؟ أم كان ذلك على أثر خلجة . . أستغفر الله . . بل خلجات كثيرة خفق لها قلبي في أدوار حداثة مرت بين التاسعة والخامسة عشرة التي انتهت وما انتهت الى الثامنة عشرة من عمري ؟

هي خلجات أنهكت قوى هذا القلب وأحالت شعاعَ الأمل الربيعيّ الضاحك الى خطفات باهتة من شَفَق شتاء ، وما تزال تخفق على ضعفها في محراب الحب .

وزادت هذه الحال في نفسي سوءاً ، فهبطت نفسي من جراء ذلك الى قرار من الحزن سحيق لاأدري سببه فلم أجد بداً من أن أترك هذا البلد الحزين حسب مشورة الأطباء إلى بلد آخر أجد في جوّه سلوى ، فاخترت القاهرة مقاماً .

ولكن كان ما خفتُ أن يكون : فقد هاجت سماء المدينة الأزلية وروحها العتيدة الناعسة الحالمة على أعتاب القدم والأبد . . . أقول هاجت كل ذلك الحزن الى أبعد قراره في نفسي ولاسيما حينما وقفتُ على مقربة من الجزيرة أرقب النيل من ناحية

بدا لى فيها ذلك الا زلىّ كأنه شاعر يغنى فى جانب الموت أغانى تلاشت معانيها فى حواشى الألحان ..! ثم تركت القاهرة إلى « نوسا البحر » وهى قرية تتكىء على النيل ويخيم عليها جوّ المنصورة اكثر ما يكون وحشة وانقباضاً .. مكثتُ بهذه القرية خمسة أيام كنت أختلف فى أمسياتها مع قريب لى إلى مكان هادىء يشرف على النيل فى مشهد رائع طالعَتْه على مبعدةٍ أشجارٌ باسقة من الصفصاف واللبخ والجيز وهائش الغاب فكانت تكسبه روعة فى الليل ضافية وكأنها بعض عباد البراهمة فنيت نفوسهم فى ذهول العبادة وهم ينصتون بألف أذن الى مزامير الآلهة ! ثم كانت بعد ذلك كله نواة قصيدة « شاطىء الأعراف » : فالنيل لم يكن غير نهر الحياة والموت فى هذه الأعراف ، والظلمة المروّعة التى كانت تألف نفسى اليها هى رهبة الأبدية فى هذه الأعراف أيضاً .

وقد مضى الآن على هذه القصيدة سنوات أربع ونشرتُ منها متفرقات فى « السياسة الأسبوعية » وهاءنذا أعود بعد تنقيحها فأقدمها الى قراء مجلة « أبولو » الغراء كاملة لا ينقصها شىء .

لقد انتهت قصيدةُ شاطىء الأعراف ، ولكن هذه الروح العلوية التى غمرت سماء حياتى بنور جمالها الباهت الحزين وهى تصاحبنى فى شاطىء الأعراف ما تنفكّ تصاحبنى بعد شاطىء الأعراف .

فإلى هذه الروح التى أرهفت أذنى لسماع أصداء مواكب الآباد ، الى هذه الروح التى تتغنّى بها كل مشاعرى كما يتغنّى الجدول بكل أمواجه ، الى هذه الروح العالية واليها وحدها أهدى هذه القصيدة .

كلية الآداب — الجامعة المصرية م. ع. الهمشرى

الذكريات

عند ما خدَّرَ الفَنَاءُ شكاتي ... وسقاني كؤوسه المنسياتِ
بعثَ الشعرُ من لَدُنْه نسيماً ... فائحَ العطرِ طيِّبَ النغماتِ
هزَّ قلعَ الصبِّي فأيقظَ فكري ... فهفتْ بي سفينةُ الذكرياتِ
في خِضَمِّ الافكارِ تطوي بي الوقتَ (م) وتهفو إلى ضفافِ الحياةِ

* * *

كلما حاولتْ لهنَّ رجوعاً ... دفعتها اللجَّاتُ منها اليها
رقصتْ في شراعِها الريحُ حتى ... حطَّمتْه وحطَّمتْ دفتيها
رحمةً منكِ يا رياحُ ورفقاً ... وادعيها ومن ينوحُ عليها
فلهُ في الحياةِ كالبرقِ أمسا ... لمْ تُساريهِ في دُجى شاطئيها

* * *

ترمُقُ الشاطئين من خلالِ الدمـ ... ـعِ حزيناً فلا يكادُ يبينُ
غير نورٍ يلوحُ كالوَمْضِ شقَّتْ ... فوقهُ السُّحبُ فهو فيها كنينُ
وسَناً يزدهي عليه كلونِ الـ ... ـطيفِ كابٍ، على الدُّجى موهونُ
هو حبُّ الذين قد ذكروهُ ... وشجاهمْ بعد الفراقِ الحنينُ

* * *

وتؤاتيه ضجَّةُ العيشِ همساً ... مثلما يسمعُ الجنينُ الهزيما
يتمشَّى صخبُ العواصفِ فيهِ ... مشبهاً في كرى المنونِ نسيما
وضجيجُ الأيامِ ينغمُ كالجرْ ... سِ خفوتاً يسرى إليهِ بهيما
أبداً ما يزالُ يهمسُ في المو ... تِ صداها بأذنهِ مستديما

* * *

وخلالَ الاصداءِ صوتٌ حنونٌ ... تائهٌ بينَ ضجَّةِ الانواءِ
يتخطَّى عصفَ الأعاصيرِ وثباً ... لا يُبالي بهولِ هذا الفناءِ
ولهُ جنَّةٌ يُرجِّعُها المو ... تُ كنجوى من عالمِ الأحياءِ
ترهفُ الأذنُ نحوها ثم تُرخي ... في ذهولٍ يجيبُ بالاغضاءِ

* * *

إنّه الحب ما يزالُ يُعانى كُلَّ هَوْلٍ ويَقتحى كلَّ صَعْبِ
يَجْشمُ الصخرَ فيهِ والسَّرَبَ الدّا جى وَيَطْوى سَهْلاً خَصيباً لِجَدْبِ
وسَوَاء لديهِ كلّ عَنُوتٍ أو ذَلُولٍ على طَريق الدَّرْبِ
ليسَ يَخْشَى اللَّجاجَ فى كلّ حينٍ أو يخافُ الرَّدَى، على كلّ سرْبِ

* * *

ويكَ ياحبّ أينَ تمضى إذَا مَا نَسَجَتْ حولكَ المَنُونُ شِباكَا
وَبَعَثْتَ الأَنْفاسَ مَعْسُولَةً حَيرى إليها تَبْثُّها شَكْوَاكَا
أترى يا هَوَى ستقتحمُ المو تَ وتلقى كالنَّفْسِ مِنْهُ رَدَاكَا
أمْ سَتَبْقى حتَّى تراكَ صَيُوداً فى غِياضِ الفِرْدَوْسِ تَرمى هُناكا؟!

* * *

تنزعُ النَّفسُ للشرورِ وتهوى هى منها عَناصِراً فى الرُّوحِ
إنما الشرُّ مَفْزَعٌ لشَجاها لو خَلَتْ من قَداسَةِ التَّسْبيحِ
ولها منه مَسْبَحٌ ومَطيرٌ مطمئنٌّ على فضاء الُّلوحِ
وهو كالحبّ كَوْنٌ ونماءٌ وهو مرعىً للرُّوح جمّ الشُّروحِ

* * *

أيها الحبّ أنت للموت موتٌ ذو غِلابٍ على البلى مستخفُّ
أنتَ صِنْوُ الحياة وارثة المو تِ ونورٌ على الأكَه يَرِفُّ
سوف تبقى بعد الفَناءِ سَبُوحاً فى فضاءٍ من الأثيرِ يَشِفُّ
تَلْحَظُ الكونَ فى سُباتِ المَنايا مثلَ رُؤْيا تَهْوِى بهِ وتَدِفُّ

* * *

(الشاعر ينتبه فجأة على ضجيج سفن الموت فيرتاع ويناجى الوقت)

ويكَ ياوقتُ! اتَّئِدْ! أينَ أمضى؟ تائهاً فوقَ هاتِهِ الأمْواجِ
فوق مَكسُورةِ الجَناحِ دَهَتْها عَصْفَةُ الجائحاتِ والليلُ داجِ
فى خضمٍّ تَدْوى العواصفُ فيهِ ناعياتٍ نورَ الشُّموسِ السَّاجى
عاصفاتٍ عليهِ تَعْتَنِقُ المو جَ وتَعْدُو لغيرِ ما مِعْراجِ

* * *

﴿ سفن الموت ﴾

نصلتْ من غبارِها سُفنُ المو ... تِ وسارت بمن تقلُّ خِفافا
لفّها الموتُ فى غياهِبِهِ السُّو ... دِ وأسرى يَطْوى بها الأَسْدافا
وبها رايةٌ تُشير الى الشطّ (م) وروحٌ يهدي له زَعْفرانا
كلما طافها الفَناءُ بصوتٍ ... رَفعَتْ قلعَها له إرْهافا!

* * *

خاضتْ الموتَ مُسرعاتٍ مع الوقـ ... ـتِ ترانى الحياةَ فى طُخياء
تَطِسُ الموجَ خفّةً ثم تعلو ... فى سماءٍ من البِلى دَكْناء
وَشَّعَ الموتُ جانبيها اصفراراً ... فأفادتْ منه ضِياء المساء
فى شفوفٍ إبْرَيْسَمٍ سابحاتٍ ... بشراعٍ مرقرقٍ من ضِياء

* * *

طائراتٍ على جناحِ حبارَى ... سابحاتٍ على بُطونِ سُمانَى
شتَّتَ الوقتُ جمعَهن فراحتْ ... عابراتٍ على الرَّدَى أُحْدانا
يَنْفَحُ النِدُّ فيه ريّا خُزامى ... مُومَضٍ حاطَهُ الشَّذَى إدجانا
ينْهبُ الشاطِئان عبقَ شذاها ... فيُؤاتى زَهْريهما نَعْسانا

« • »

وأرى فلكَ الكسيرَ عليه ... يتهادَى من بينها مَبْهوتا
فاجأتْه الويلاتُ من كلِّ صوبٍ ... خلّفَتْه من عَصْفِها مَبغوتا
فى ذُنابَى الأفلاكِ يَهفُو الى الشطّ (م) فيلوى به الردى مَكبُوتا
فاذا عادَهُ من الشطّ طيفٌ ... شَذَّ من قلعِهِ يُسارى الحوتا

« • »

ولكم مرَّتْ اللّيالى أمامى ... مُسرعاتٍ ، يَلُحْنَ مثلَ الظلالِ
وكأن الساعات فيهنَّ واليو ... م وكلّ الأوقات نورُ الزّوال
فيك ماتت هذى السنونُ أيا ليل (م) وباقي الأحقابِ فى اضمحلال
تَنْشُرُ الوقتَ فى الحياة لتطويه (م) جديداً والبعض فى أعمال

﴿ الشاعر والآلهة ﴾

(يستفيق الشاعر مرة أخرى على نور يَغْشى الأفق فيستفسر الآلهة عن ذلك فيجيبه)

﴿ الشاعر ﴾

أيّ نور هذا الذى يبهر الأفـ ق ويَزْهُو مُغَشِّياً جَنَبَاتِهْ ؟

﴿ الآلهة ﴾

هو ياشاعرى الصغير رِكابى ويَشعُّ الضياءُ من مِشْكاتِهْ
قد تخطّى إليكَ كلَّ هبوبٍ ومُسفّ اللُّجّاتِ فى مانجاتِهْ

« • »

وبدا فوق صَفْحَةِ الأفق «أبّو سّ[1]» يُقلّ الانوارَ فى مَرْكَباتِهْ

« • »

يا لَه مركباً غلائلُه النُّو رُ ومن خالِصِ الأثير شراعُهْ
احْتَوَتْهُ الأنوارُ فى رَكْبِها الضَّا فى ودَانَى طَرْفَ الأَواذى شُعاعُهْ
فَتَراءَتْ مثلَ القَناديل تَتْرى حوله ، فوقها يَرِفُّ اليَماعُهْ
أو رُؤًى فى كَرًى تراءى وِضاءً ضَمَّ أطْيافها إليْهِ قِلاعُهْ
قد تهادى بين الظلامِ كحُلمٍ ذَهَبيٍّ على جناحِ فضّى !
من رُؤى أول الكَرَى وهى تَسرى مُسرعاتٍ من العُيونِ الغُمْضِ
حوله مَوْجتانِ قد حَوَتاهُ وهو فيها يَرِفُّ مثلَ الوَمْضِ
يُعْكِسُ السِّحْرُ فوقه كلَّ حين فى زَهِىِّ الأطيافِ من كل محضِ

« • »

(الآلهة تنصح الشاعر أن تحمله الى الفردوس فيصرّ على مرافقتها)

أنتَ ياشاعرى تحمّلتَ صبراً فى حياةٍ محفوفةٍ بالزوالِ
هىَ رؤيا حلمٍ وَيقْظتُه المو تُ ، وقَفْرٌ سماؤهُ من آلِ

(١) اله النور عند الاغريق .

تبدأ العيشَ فى الذى تنتهى فيـ ـهِ سوادٌ على قفيرٍ خالى
ونهارٌ يمضى بساحةِ ليْلَيْـ ـنِ هو العيشُ وهو عُمْرٌ خيالى

« • »

إيهِ ياشاعرى تحمَّلْتَ صبراً فى عذابٍ قد فاق كلَّ عذاب
لكأنى أراكَ فى نشوةِ الفكرِ (م) شَكِيّاً تشكو من الأوْصاب
آتى تَرْتضِى اصطحابى الى الجنَّـ ـة مَثْوى الشوَّادِنِ الأسراب
حيثُ تَلقَى ما تشتهيه من الآ مالِ فى الأشرباتِ والأسلاب

« • »

﴿ جنة الشعراء ﴾

تستطيبُ الجلوسَ فى ظلِّ أيْكٍ رَفْرَفَ الطيرُ فوقه أسرابا
يَتغنّى بين الثمارِ بلحنٍ هل سمعتَ القيانَ غنَّتْ طِرابا
من وحِيدَيْنِ يَسْجعانِ سروراً وشَجِيَّيْنِ يشْدُوانِ انتحابا
وجرى الماءُ فى الغدير رحيقاً وجرت فوقه الزهورُ حبابا

« • »

جنةٌ صاغها الالهُ من السِّحر (م) ففيها صبابةُ السعداء
نورُها من وشائعٍ من هواء فهى منه فى رقةِ القَمراءِ
وتَغنى الاطيارِ فيها اصطخابٌ فصباها من عبقريِّ الغناء
من خيال الاشعارِ قد صاغها اللهُ (م) ففيها روائعُ الشعراء

« • »

سترى «افرليز» [1] تجرى على العشـ ـبِ وتهفو إلى شراع المراكبْ
و « نفاتيس [2] » فى ضفائرِها الصفر (م) تغنى تحت الثلوج الأشاهبْ
و « عذارى الينبوع » تعزف موسيقى (م) ربيعٍ فوق الضفاف الشواعبْ
سوف تلقى هناك كلَّ نعيمٍ فتقضّى فيها جميعَ المآرب

« • »

(١) دمية الفتها الالهة ايزيس فى النيل فاستحالت الى حورية تعابث الامواج والشراع.
(٢) قصة حزنها مشهورة عند ماقهرتها آلهة بابل وأشتار فى بلدة نيكور.

(الشـاعر)

أمطـرتك الرحماتُ يارية الشعـر (م) وجادتكِ فائضـاتُ اليمين !
كنت سلوايَ فى الحياة ، وفى الموْ تِ أراكِ ، على دجاهُ خدينى
(وتتركه آلهة الشعـر فى الفردوس وتهمّ بالمسير فيصيح الشاعر بها)
ماأرى ؟ تزمعين بعـد رحيـلا ؟ ربة الشّعـر ـ ويكِ ـ لا تتركينى !
أيةَ تذهبـين فى ذلك المـوتِ ؟ (م) ولكن هيا !... خذينى !... خذينى !

(آلـهة الشعر)

شأن نفسى وذاك فىَّ غرامٌ أن تلاقى الخطوبَ والاهْوالا
اقتبـلْ أنت ناعمـاً وتفكهْ فى جنـان طابت جنىً وظـلالا
سـوف آتيك بالذى قد أراهُ فوق شط الأعراف ، فاهدأ بالا
إننى سوف ألتقى بمنايا تصرعُ الريح ، تنسف الآجالا !

(الشـاعر)

آه ! ياطائفَ الخيال تعـالى ! وابـقَ جنبى ولا تغادرْ وحـدكْ
كيف تلـقى الرَّدى وأنت ضعيـفٌ وسهامُ المنونِ يقصـدْن قصـدكْ
وندىُّ الانوار يلفـحُ وجـهكْ والنسيمُ العليلُ ينسـلُ شعـركْ
فاذا غالك الفناءُ بسهـم كيف أرضى الفردوس داراً بعدكْ ؟!

(آلـهة الشعر)

قِرَّ نفساً فانى لا أبالى بشعوبٍ ولستُ أخشى الحِمَاما
انا فى رُوحِها الكريهةِ روحٌ لا تلاقى المنونَ إلا سَلاما
أنا كالبارقِ السَمَاوىّ نورٌ لا ينى فى مُضيِّه يترامى
هو يبدو من حيثُ يَحْسبُه النا سُ تعاطى من المنيةِ حاما !

« • »

هاكَ مُلْكى على الدُّجى يتراءى مُستضاءً . . كالكواكب اللَّماحِ
بهر الموتَ نورُه . . فهو أعشى يتحاشى من خطفه بالرَّاحِ
يومِضُ الليلَ بالسَّنا مُستطاراً فى اصفرارٍ يحكى اصْفرارَ الاقاحى
صَنعتهُ إلَـهةُ الشّعر كيما تتخطى به شِبَاكَ الرياحِ

« • »

فاصْطحِبنى إذن عليه وهيَّا فوقَ هولِ الفناء نمضى سويًّا
فلقد تطبَّيك رُؤيا المنايا وتراها حُسناً اليك صَفيًّا
كنت طفلا على المشيبِ لعوباً مشيباً على الصِّبا كُنتيًّا
تستمدُ الحياةَ من نُورِكَ البا لى وتسْهو إلى سناهُ شجيًّا

« • »

لم تكن غيرَ طائفٍ من ضياءٍ قد طواه به ظلامٌ مَجْنِح
حَظُّهُ من حياته ما رآه من تهاويل جَوِّهِ وهو يَسْبَحْ
فهو من ذِكرِها الحبيبَ مَطافٌ لِرُؤًى فى ضِيائهِ التِبْرِ تَلْمَحْ
ذُكرَاتٌ ... يَرْتادُهُنَّ لقاءٌ مُسْتَعِيقباً فى الخيالِ بُعداً مُبرِّحْ

« • »

ونُهَيْرٍ مُرَقْرَقٍ كَنَفَتْهُ غابةٌ بين دَغْلِها ينسابُ
بَسطتْ فوق مائه العَذْبِ ظلاً تحت عطفِ الأمواج لا يَنْجابُ
حَجَّبتهُ عن العيونِ طويلا وهداها له الصَّفاءُ المُطابُ
سحرَ العالمينَ منه رحيقٌ فاذا هم من صَفْوِهِ شُرَّابُ

« • »

تطلبُ السعْدَ وهو منك قريبٌ تدَّعِى الحزْنَ وهو عنك بعيدُ
قد طوَيتَ الحياةَ تجهدُ فيها ليت شِعرى فهلْ جَدَا المجهودُ
تنفَحُ الناسَ من شَذى زَنبق « النُّود » وَهُمْ فى كرى الحياةِ رُقودُ !
قد أضَعت الحيـــــاة كلَّ ضياع فى حُطام فان هو التخليدُ !

« • »

(الشاعر يسمع أرغن الموت على فلك الآلهة)

يا حيالى ! ماذا يَطوفُ بقلبى يا خيالى ماذا يُســـــارقُ اذنى ؟
أىّ شىء أحسّ .. أىّ دَبيبٍ مستلذٍ .. يُحذِّرُ الرُّوحَ مِنّى ؟

﴿ الآلهة ﴾

إنه ارْغُن الغنـــــاء يُغنّى ويعيد الحيـــــاةَ فى مثل لَحْن
جَهْوَرِىٌّ الموجاتِ تَنْفخُ فيه مُسْمِعاتٌ يفضن من كلِّ فنّ

« • »

هاكَ لحن الجمال .. هاك صَداهُ هاكَ لحن الهوَى ولحن التّفانِي
هاك لحن الأَسَى .. ولحن التأسّى هاك لحن الآمال .. لحن الأَمانى
هاك لحن الصِّبى ولحن التَّصابى هاك لحن المشيب والحرمان
هاك كلّ الحياة مرَّتْ كلحنٍ وصداها يعجُّ فى الآذان

« • »

﴿ أرغن الغناء ﴾

واهاً له من ناءْ ألحانُه زَفْرافْ
فى صَمْتِ وادى الفناءْ تُعانِقُ الأَسْدافْ

« • »

يَضِجُّ فى الامواجْ مُصْطَخِبِ الصّوتِ
يزهى على الإدْلاجْ من شَفَقِ المَوْتِ

« • »

مفيضُهُ من دموعْ يَسكُبُها اللَّحْنُ
وصَمْتُها مَقْطُوعْ يَنْهَبُه الحُزْنُ

« • »

دَوِّى على الأصداءْ يُمعِنُ فى الظَّلْمَا
يُسامِرُ الجَوْزَاءْ ويَنْفَحُ الحُلْمَا

« • »

عَجِيجُهُ صَيَّاحْ كالبُوقِ فى الآذانْ
يُهاجِمُ الأَرْواحْ مِنْ غَيْرِ ما اسْتِئذانْ

« • »

فالكَوْنُ فى رَجْف كالكَوكَبِ الخَفَّاقْ
خاضَا من الخَوْفِ فى مَسْبَحِ الآفاقْ

« • »

وتارَةً يَخْفتْ فى غَسَقِ اللَّيْلِ
كالرُّوح لو تَصْمُتْ فى صَخَبِ الوَيْلِ

« • »

فَتَحْسَبُ المَوْجَا يَلْعَبُ بالارْضِ
يرُجُّها رَجّا وَبَعْدَها ... يَمْضِى

« • »

يَعلُو على النّجمِ ويلمس السّقْفا
كأنّ فى حُلمِ طيفاً به رَفّا

« • »

فطافت الذّكرى بقلبه الثّانى
كالظِلّ لو أسْرى بصفحةِ الماء

« • »

فى دُجْنَةِ الآبادْ ترْعشُ كالأشباحْ
كالجمرِ تحت الرّمادْ من فوقه النّدُّ فاحْ

« • »

فلاحَ فى الليلِ بستانُهُ الثّاجى
مُعطّرَ الذيلِ فى أفقِ داجى

« • »

وتحت ظلٍّ وريفْ مقعدُ مَنْ يَهْوَى
يخطف فيه رَفيفْ من السّنا أضْوَى

« • »

وتلكَ ،لا بَلْ هَذِى مَلاعبٌ لا تُحْصَى
ليس لها من نَفاذٍ قطّ ولا تُسْتَقْصَى

« • »

كم مَرّ فيها ربيعْ ومَرّ فيها خَريفْ
وكم مَشَى فى خُشُوعْ يُناغِمُ الشّادُوفْ

« • »

يلهو على النّبْتِ ويَقْطُف الزّهْرا
يخفّ فى صمتِ يَسْترِقُ الطّيرا

« • »

﴿ صور اللحن فى الصبى ﴾

وأبدلَ النّغْمَا إلى الصّبيَ الغَيْدانْ
فصوّر العُدْمَا فى مَنْظرِ فتّانْ

« • »

جوٌّ من الأثيرْ مُذَهَّبٌ فِضى
سَماءُ أيْكٍ شجيرْ يَرِفُّ فى الأرضِ

« • »

مُنَوَّرُ النُّوارْ كالخملِ المُنَوَّفْ
طرَّزَهُ النُّوبَهارْ مُفَرَّقاً مُؤلفْ

« • »

﴿ صور اللحن فى المشيب ﴾

وأبدَلَ النَّغْمَا الى شحوبِ المشيب
فصوَّر العدما فى منظرٍ كئيبِ

« • »

جوٌّ من البردِ أعصارُهُ ثجُّ
يذيبُ فى الجلدِ رُوحاً به الثلجُ

« • »

ودَغَلٍ مُصوّحْ يشْتَقُّه الذُّبولْ
لا طائرٌ فَيَصدَحْ به ، ولا خميلْ

﴿ صور لحن الأسى ﴾

وأبدلَ النغما فى رنةِ الحُزْنِ
فصوَّر العدما فى منظرٍ مُضْنِى

« • »

حديقةٌ فَيْحاءْ فى زَمنِ ربيعْ
يمشى انقباضَ الشِّتاءْ فى حُسْنها الوديعْ

« • »

﴿ صور لحن الأمانى ﴾

وأبدلَ النغما الى صغيرِ الامانى
فصوَّر العدما من أزْهرِ الالوانِ

« • »

مشْجرَةٌ غَيْناءْ رِسْحرِيَّةُ الأزْهارْ
تسْطعُ فى دَكْناءْ من عَبيقِ الأعْطارْ

﴿ مطلعُ الشاطىء ﴾

(الشاعر ينتبه مبغوتاً)

إيه ربَّاه ما أَراه أمامى ؟ أىّ نورٍ فى أيّما أَسدافِ ؟!

﴿ الالَـهة ﴾

هو شطُّ الأَعرافِ ...

﴿ الشاعر ﴾

أيَّة شطٍّ ذا المُسَمَّى بشاطىء الأعرافِ ؟

﴿ الآلهة ﴾

هو مثوى الألحان بعد شَتاتٍ ومَقرُّ الأرواح بعد طَوَافِ
تَرْقُبُ الموتَ والحيـاة تسيرا ن على الوقتِ وهـو كالرجَّاف !

﴿ وصف الشاطىء ﴾

فى انتحاءٍ عن العوالم قاصٍ حيث يَرْقى السكونُ مرقى الفضاء
وطيور القضاء تنعَبُ فى المو تِ نعيباً يزيد هولَ الفناء
غير أن السكون ينهشه نهـ ـشاً ويمشى الخفَى على الضوضاء
سرمديُّ البقاء يحكم فى الموتِ (م) ويبقَى على بقاء البقاء !

* * *

وإذا ما استمعتَ هالك صمْتٌ فى عويل الآزال والآبادِ
يستجيبُ الفَناءَ وهو بعيدٌ فيُلاقى منه سكونَ الجمادِ
حُلمٌ مزعجٌ تراه بها الأر ضُ وهـــذا الفناء مثل الرقادِ
استطارتْ له وَحقَّقه العدم (م) من الخوف فى المنايا العوادِى

* * *

ليس شىءٌ يحيى المُنى فيه إلا ابْيضاض الثلوج فوق الصخورِ
مثل صوب العِهادِ تلحق بالبعض (م) وتَنْهالُ فى اصْطِخابٍ نكيرِ
تَطِسُ الصَّخْرَ والكهوفَ وتَنْقضُّ (م) عليها مثلَ انقضاضِ النّورِ
لهَفى ! كلّ ما أرى فهو موتٌ ينذرُ الأرضَ موعداً بالثّبور

* * *

يستريحُ الزّمانُ والموتُ فيه بعد طولِ التطوافِ والجولانِ
وكأنّ الزمان خامرَهُ الخمـ ـرُ فأضحى مع الردى فى احتضانِ
وتلاشَى به رويداً رويداً ثم أهوى عليه كالوَسْنانِ
فإذا بالفناء يحكمُ فرداً فَوضَوِيّاً على جَلال المكانِ !

* * *

هو وادٍ للموتِ يَنْشُرُ فيه شِبهَ دنيا تَفنَى وشبهَ حَياةِ
يبسطُ الوقت كالخضمّ ليَطْويـ ـه ويعدو عليه كالسَّعْلاةِ
مزّقت نفسها الرّياحُ عليه داوياتٍ من فوقه مُعْوِلاتِ
لفظٌ يشبه الحياةَ بما تحوى (م) ولكنْ خِلْوٌ من الأصواتِ

* * *

تبصر الدَّوْحَ صاعداً فى فضاءٍ يتراءى عليه كالأشباحِ
فى لَبُوسٍ من الدّياجيرِ داجٍ لفّه غَيْهَبٌ مُسفُّ الجناحِ
وترى البرْقَ مومِضاً يترامى فى ثنايا الأسْدافِ مثل الجراحِ
أو كحربٍ على الظلامِ عوانٍ قام بين الاجسادِ والارواحِ

* * *

وترى الموجَ فوقه يركبُ الموجَ (م) ويعلو مُهاجماً شُطآنَهْ
مُظلماتٌ من فوقها ظلماتٌ تعجز الطّرفَ فى مَداها الابانَهْ
مُدْجِناتٌ . . هواضبٌ . . تترامى فى اصطخابٍ . . فى ليلة أرْوَنانهْ
ربِّ ! أين المفرُّ منها وهذا شَبَحُ الموتِ قد أطالَ جِرانهْ ؟!

* * *

هِىَ هذى السنينُ تمضى عِجالاً مُسرعاتٍ تجرى على التيارِ .
تتلاشى فى بعضها ثم تحيي لتعيد التمثيلَ فى الاعمارِ
مُشبهاً بعْضُها على العمر بعضاً لو خلتْ من تباينِ الاوْطارِ
والهذا الفناء ! ... والهواهُ ! والهذا القضاء والاقدارِ !

* * *

أيها الوقت كم أطحتَ بعيشٍ خضلٍ كان وارفَ الأظلالِ
حيث كنا وقد تحقق فيه كلُّ حاجٍ من سائح الآمالِ
كلّ يوم يزادد حسناً ولطفاً ثم تمضى الغُدى على منوالِ
لم يُكدِّرْ سماءه أىُّ غيمٍ ومضىَ ناعماً بأحسنِ حالِ

« • »

وتُواتيكَ أنّةٌ وعويلٌ من ظلامِ الكهوفِ والغيرانِ
أهى شكوى الأحلامِ يصرَعها المو تُ وشكوى مما تُقاسى الأمانى ؟!
أمْ هى الرُّوحُ تستغيثُ وتبكى من عدُوٍّ فى الموتِ ذى شَنآنِ ؟!
أم هو الموت فى الظلام يُغنّى أم عزيفٌ يدوى من الجِنّانِ ؟!

« • »

﴿ الآلهة ﴾

إيهِ ياشاعرى ! كفاكَ مُقاماً ها هنا . . فالفناءُ جمُّ الضِّفافِ
ليس شطُّ الأعراف هذا ولكن هو ركنٌ من شاطىء الأعرافِ
سترى مخبأَ الليالى وتلقىَ مَصرَعَ الوقتِ فى دُجاهُ الضافى
حيث لا مَعْلَمٌ هنالك يهدى لا ، ولا فوقه يُصاخُ لِطافِ !

« • »

فسرَى فُلكُها يَشقُّ الدَّياجى فى ذَميلٍ مسيرُهُ ركّاضِ
يمخرُ الموجَ والعبابَ بقيدُو مٍ شتيمٍ على الرَّدى خوّاضِ
ثم أرْسى وقد عراهُ رجيفٌ فوق شطٍّ من المخاوفِ ناضِ
ليس رُؤيا عليه غير ظلام ليس حسٌّ عليه غير انقباضِ

﴿ قبر الليالى ﴾

فاذا هيكلٌ يلوحُ على الأفق عليه من المنايا شحوبُ
قاتم الجوِّ أغدفتْ كنفتْه بلجاجٍ من الظلام شعوبُ
ترسل الطرفَ نحوه فيلاقى حَجْنَةَ الموت فوقه فيؤوبُ
وحشةٌ تصرع الأمانَ وخوفٌ إثر خوفٍ على الردى محسوبُ !

* * *

يُفزع الجنَّ والاناسى ويُضنى رُسُلَ الليل أن تخوض ظلامَهْ
لو رأوه خرُّوا لديه سكارَى يسألون أيَّان يوم القيامَهْ
ولراعتهمُ المخاوفُ تجْنُو خلفه فى الظلام ثم أمامَهْ
أين ألقى الضياءَ فى ظُلُماتٍ تنهبُ البرقَ فى الفناء نهامَهْ!

* * *

قِفْ تأمَّله وهو يعترض المو جَ فيمضى من نحْتِهِ جَيَّاشَا
هو قبرُ الحياة يقصده الوقتُ (م) جَزوعاً من هولهِ رعَّاشَا
فاذا ما احتواهُ أرسلَ نجوا هُ رذاذاً من خلفه ورَشَاشَا
هو دمعُ الزمان وهو « الرَّحيم القلب » لم يلق فى الحياة المحياشَا!

﴿ الآلهة تناجى الشاعر ثانية ﴾

إيهِ ياشاعرى! كفاك مقاماً ها هنا فالفناءُ جَمُّ الضِّفافِ
ليس شطُّ الاعراف هذا ولكن هو ركنٌ من شاطىء الاعرافِ
سترى مخبأ الليالى وتلقى مصرع الوقت فى دجاه الضافِ
حيث لا مَعْلَمٌ هنالك يَهدى لا، ولا فوقه يُصاخُ لطافِ!

* * *

فسرى فلكها يشقُّ الدَّياجى فى ذميلٍ مسيره رَكَاضِ
يمخر الموجَ والعبابَ بقيدو مٍ كريهٍ على الرَّدى خوَّاضِ

* * *

وإذا بى أحسُّ صوتاً حنوناً طائفاً فى الردى بأرخم جرْسِ
يتهادى على السكون رخيماً ويناجى الأرواحَ فى مثلِ همس
وهى فى الموت لا تحسُّ بنجوى من غناءٍ ولا تصيخ لحسِّ
سكنت سكنةً يعانقها الصمـ ـتُ وأسرى بها فناءٌ مغسِّى

* * *

أخذ الصوتُ فى ازدياد « خفوتٍ » وسجوٍّ على السكونِ مديدِ
مستديراً على الفضاء يدانى طرف هذا الفضاء حدَّ الوجودِ

وبدا فوق هامة الأفق نورٌ ساطعُ الجوّ خاطفٌ من بعيد
وإذا موكبٌ يتيه عليه مثل قصرٍ من الضياء مشيدِ!

* * *

هو ركبُ الحياة يمشى حثيثاً مستخفاً إلى « ضريح الليالى »
فهو مثوى الاحقاب بعد تمام ومقرّ الاجيال بعد اكتمال
قفْ تأملْ! فلك الحياة عليه ملكٌ فى وضاءةٍ وجلالِ
عبقريُّ الجمال فى سندسٍ خضر (م) يغنىّ فى بهرةٍ واختيالِ!

* * *

ومررت خلفه « زوارقُ » شتّى تتراءى كأنها أحلامُ!
فترى « زورق الجمال » عليه مسمعاتٌ غناؤهن سلامُ
وترى « زورق السرور » عليه مسمعاتٌ غناؤهن سقامُ
وترى خلفها زوارقِ شتى منشئاتٍ ... وكلها آثامُ!

* * *

جُبلتْ هذه الحياةُ على الشرّ (م) وإن كان ناشياً فى الخيرِ
وأرى الخيرَ من عارِ ضرارٍ وَجدت خصبَ أرضها فى الشرّ
إنّ هذا التراب وهو قبيحٌ فاح من روحه أريجُ الزّهر
ليس هذا النعيم غير شقاءٍ فحذارِ.. حذارِ.. من أمّ دَفْرِ!

* * *

ومضى الركبُ فى الردى وتلاشى أثرُ الركب فى « ضريح الليالى »
فكأنّ الحياة كانت مناماً وغرور الحياة طيف خيالِ!

﴿ السكون الحاكم ﴾

أيُّهذا السكونُ! يا حاكمَ الموْ تِ! وصنوَ الآزالِ والآبادِ!
كنتَ قبل الحياة تحكم فى المو تِ، وها أنت حاكمٌ فى الممات!
أيها العدم! أين أسرى حبيبى؟ أيها العدم! أين أسرت حياتى؟!
أين مثوى الضياء؟.. أين أراهُ؟ أين مثوى الغناء والأصواتِ؟

« • »

أيُّها العُدْمُ أين تنعسُ فى الصمّ تِ وتلقى لديه راحةَ جفنكْ؟
قِفْ ودعنى أبثث إليك شكاتى والتياعى مُهَمْهماً فى أذنكْ!

« • »

لم أجدْ فى الحيـاة لى اذْنَاً تسـ ـمعُ شكوايَ أو فؤاداً حنونَا
ولذا قد أتيتُ أشكوكَ ما بى فلقـد ترْحمُ الكئيبَ الحزينـاَ

« • »

كان لى فى الحياة قلبٌ طروبٌ يتغنّى كالطائر الصدّاحِ
أحرق الحزنُ منه ريشَ جناحيْـــــــه وأهوى به كسيرَ الجناح !

« • »

فتحملْ منه أساه وفرِّقْ ـه على ذلك الفضاء شعاعَا
قبل أن يقضىَ الفـؤادُ ويمضى حاملاً معه فى الفناء التياعَا

﴿ ساحر الوادى المغنى ﴾

(فى الابيات التالية يتخيل الشاعر مغنياً فى وادى الموت يغنى الفانين لحناً صامتاً وهو بعينه المغنى الذى كانت موسيقى الوجود تستمد ينابيعها منه وتفرقها على الربيع والاطيار والمياه والنور . . . يتخيل الشاعر وقوف المغنى صامتاً بقيثارته المحطمة يعزف عليها فلا تساعفه الالحان)

« • »

ساحرَ المـوت ! طال صمتك هيّـا رجعْ اللحنَ . . أيهـذا الشادى !
قمْ أيا عازفَ المنـونِ وغنّى وابعثْ النغـم فوق صمتِ الوادي

« • »

أترك الدوحَ والينابيعَ تحيا لتعيدَ الحـزينَ من آهاتكْ
فلكم فاح نشرُها وهى تسرى لتحـيِّى الصباحَ فى نغماتكْ
لهفى ! ما أراك تبعث لحناً ! فاخبر الشعر ما دهى قيثـاركْ ؟
سوءة لليدِ التى عطلتْها ! وعفت فى غنائها أوْتاركَ !

« • »

هاك موجُ الفناء يقذفه اليأ سُ على شاطىء السكونِ الرَّهيبِ
يستجيب الأصداءَ وهى تعانى ما يعانى . . فما لها من مجيبِ !

« • »

وأرى روحك الشحوب دفوفاً تشتكى للسكونِ من أحزانكْ
غنها من سماء فنِّك لحناً فلقد تستفيق من أحزانكْ

« • »

كان إنشادك المبارك فجراً مستهلا وضيءَ نورِ الحياة
ليت شعرى فأين أذوى وأينتْ قد أقرت ألحان ذى الأغنياتِ
لهفى ما أراكَ تبعثُ لحناً فاخبر الشعر ما دهى قيثاركْ ؟ !
سوءةٌ لليد التى عطلتها وعَفَت فى غنائها أوتاركْ !

* * *

شرح وتعليق

الأعراف كما فسرها المفسرون مكان بين الجنة والنار، واطلقت هنا على شاطىء خيالى يقع وراء عالم الحياة ويشرف على عالم الموت .

بعد أن مات الشاعر حملته آلهة الشعر على زورقها السحرى فى بحر الوقت وأدست به على هذا الشاطىء ...

والشاعر يصف لنا كلّ ما رآه فى طول رحلته من عجائب الموت التى تحلم بها كل شاعرية تسلم زمامها الى الخيال المطلق !

وعند ما يصل الشاعر الى شاطىء الأعراف يصف لنا هذا الشاطىء ثم يروعه بحر هائج مصطخب يشرف عليه شاطىء الأعراف فيصفه لنا : هذا البحر هو « بحر الوقت » !

ويعترض هذا البحر على صفحة الأفق هيكل قصر خرب به فتحات مظلمة تنساب فى خلالها مياه بحر الوقت وتفنى فى أحشاء المجهول والعدم : هذا الهيكل الحالك هو « قبر الليالى » التى كانت تدفن أشلاءها فيه أثناء الحياة .

وبينما كان الشاعر يرعى ذلك طلع عليه موكب فخم من زوارق سحرية يتقدمها فلك عليه خيال ملاك يعزف على قيثارته ...

هذا الملاك هو الحياة تقود عناصر الوجود من الجمال والشر . . . الخ . فى زوارقها ، ومرّ ذلك الموكب فى بحر الوقت واختفى فى غياهب هذا القصر الذى هو قبر الليالى ، ثم أرخى على العالم ستار العدم والصمت !